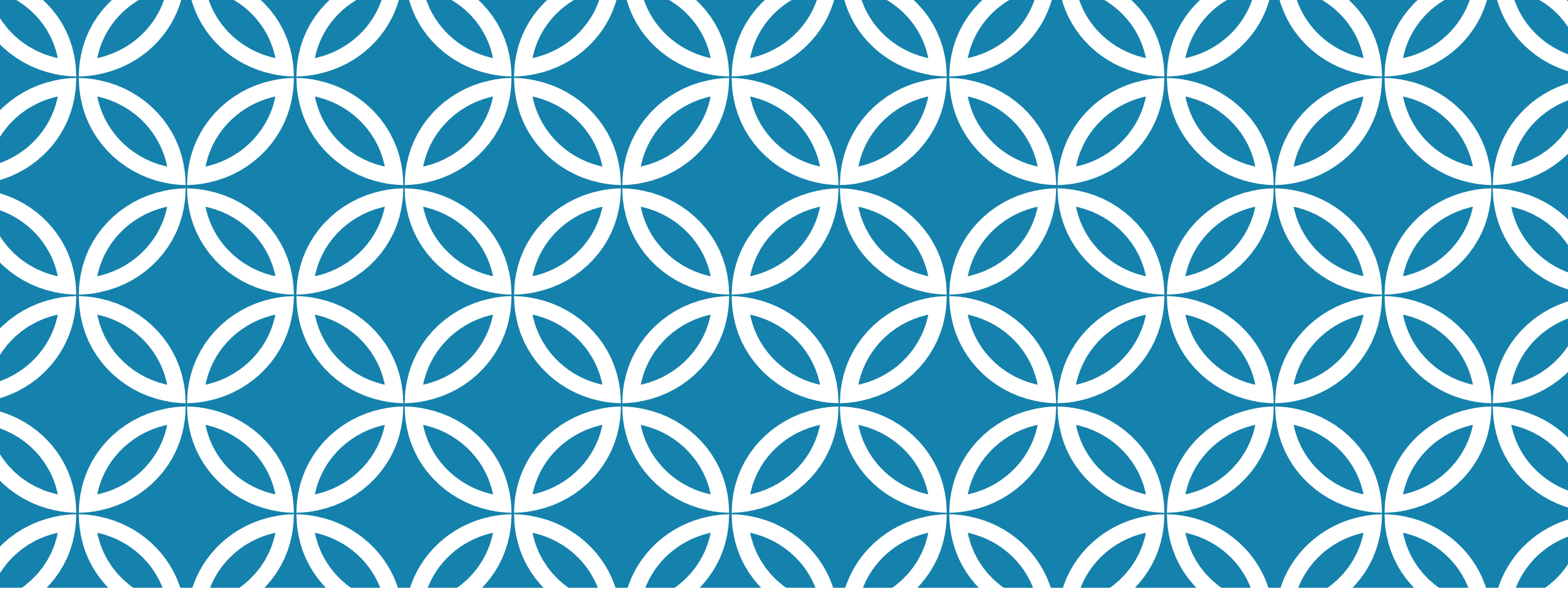




نظرية الحتمية التكنولوجية

منطلقات نظرية الحتمية التكنولوجية:

كان مارشال ماكلوهان شديد الإعجاب بعمل المؤرخين أمثال الدكتور وايت صاحب كتاب (التكنولوجيا الوسيطة والتغير الاجتماعي)، الذي ظهر سنة 1962، والذي يذكر فيه المؤلف أن الاختراعات الثلاثة التي خلقت العصور الوسيطة هي: الحلقة التي يضع فيها راكب الحصان قدمه، وحدوة الحصان، والسرّج، وبواسطة الحلقة استطاع الجندي أن يلبس درعا يركب به الحصان الحربي، وبواسطة الحدوة والأربطة التي تربط الحصان بالعربة توافرت وسيلة أكثر فاعلية لحرق الأرض، مما جعل النظام الاقطاعي الزراعي يظهر، وهذا النظام هو الذي دفع التكاليف التي تطلبها درع الجندي.

وبالإضافة إلى أفكار وايت تأثر ماكلوهان أيضا بباحثين أمثال والتر بنجامين وبخاصة كتابه المعنون العمل الفني عصر إعادة الإنتاج الميكانيكي، ومامفورد وكتابه التقنيات والحضارة، وستيفرد لويس وكتابه الآلة تحكم زمام الأمور، وأيضا وينادهام لويس وكتابه الزمن والانسان الغربي وغيرهم.....

كل هذه المؤلفات جعلت ماكلوهان يعرف أهمية التكنولوجيا مما ساعده على تطوير فكرة محددة عن الصلة بين وجود الاتصال الحديث في المجتمع والتغيرات الاجتماعية التي تحدث في ذلك المجتمع.

ويشير مارشال ماكلوهان أيضا إلى أنه مدين برأيه هذا لمؤلفات عديدة ساعدته على تطوير نظريته المبتكرة.

لماذا الحتمية التكنولوجية؟

يقول مارشال ماكلوهان أن (مضمون) وسائل الاعلام لا يمكن النظر إليه مستقلا عن تكنولوجيا الوسائل الاعلامية نفسها، فالكيفية التي تعرض بها المؤسسات الاعلامية الموضوعات، والجمهور الذي توجه له رسالتها، يؤثران على ما تقوله تلك الرسائل، ولكن طبيعة وسائل الاعلام التي يتصل بها الانسان تشكل المجتمعات أكثر مما يشكلها مضمون الاتصال، فحينما ينظر ماكلوهان إلى التاريخ يأخذ موقفا نستطيع أن نسميه (بالحتمية التكنولوجية Technological Determinism) فبينما كان كارل ماركس يؤمن بالحتمية الاقتصادية، وبأن التنظيم الاقتصادي للمجتمع يشكل جانبا أساسيا من جوانب حياته، يؤمن ماكلوهان بأن الاختراعات التكنولوجية المهمة هي التي تؤثر تأثيرا أساسيا على المجتمعات.

الأفكار الأساسية لنظرية الحتمية التكنولوجية:

تعتمد هذه النظرية على ثلاثة افتراضات أساسية، نعرضها كالتالي:

أولاً: وسائل الاتصال هي امتداد لحواس الإنسان:

يعتقد ماكلوهان أن كل وسيلة اتصالية إنما هي امتداد للواقع الانساني، فهو يرى أن وسائل الاتصال الالكترونية غيّرت في توزيع الادراك الحسي، أو كما يسميها ماكلوهان "نسب استخدام الحواس"، فامتداد أي حاسة يعدّل من طريقة تفكيرنا وتصرفاتنا وإدراكنا للعالم من حولنا. حيث أن الناس يتكيفون مع الظروف المحيطة عن طريق توازن الحواس الخمس (السمع، البصر، اللمس، الشم والتذوق) مع بعضها البعض، وكل اختراع تكنولوجي جديد يعمل على تغيير التوازن بين الحواس.

يقول مارشال ماكلوهان أن وسائل الاعلام التي يستخدمها المجتمع ستحدد طبيعة المجتمع، وكيف يعالج مشاكله، وأي وسيلة يفكرون ويعملون وفقا لها، ويرى أيضا أن التحول في الاتصال التكنولوجي أحدث تحولات في الحساسيات/ الحواس الانسانية وكذا في التنظيم الاجتماعي، فبدون فهم الأسلوب الذي تعمل بمقتضاه وسائل الاعلام لا نستطيع فهم التغيرات الاجتماعية والثقافية التي تطرأ على المجتمعات. 'فاختراع اللغة المنطوقة' هو الذي ميّز بين الانسان والحيوان، وبدون اختراع الكتابة ما كان التحضر ممكنا.. وهكذا دواليك.

وعلى هذا الأساس يرى ماكلوهان أن التاريخ البشري هو تاريخ وسائل الاتصال ويقوم بتقسيمه إلى المراحل التالية:

1. المرحلة الشفوية: (مرحلة ما قبل التعلم، المرحلة القبليّة)
2. مرحلة كتابة النسخ: والتي ظهرت بعد هومر في اليونان القديمة واستمرت ألفي عام.
3. عصر الطباعة: من القرن الخامس عشر إلى سنة 1900 تقريبا.
4. عصر وسائل الاعلام الالكترونية: من سنة 1900 تقريبا، حتى الوقت الحالي. (وفق مارشال ماكلوهان)

فطبيعة وسائل الاعلام المستخدمة في كل مرحلة تساعد على تشكيل المجتمع أكثر مما يساعد مضمون تلك الوسائل على هذا التشكيل. وباختصار يدعي ماكلوهان أن التغيير الأساسي في التطور الحضاري منذ أن تعلم الإنسان أن يتصل، كان من الاتصال (الشفهي) إلى الاتصال (السطري) ثم إلى الاتصال (الشفهي) مرة أخرى.

ثانيا: الوسيلة هي الرسالة:

بمعنى أن طبيعة كل وسيلة، وليس مضمونها هو الأساس في تشكيل المجتمعات، ويرى 'ماكلوهان' أن الرسالة الأساسية في التلفزيون هي التلفزيون نفسه، كما أن الرسالة الأساسية في الكتاب هي المطبوع، فالمضمون غير مهم، وأن المهم هو الوسيلة التي تنقل المحتوى، ويشير 'ماكلوهان' إلى أن لكل وسيلة جمهورا من الناس الذين يفوق حبهم لهذه الوسيلة اهتمامهم بمضمونها، بمعنى آخر.. التلفزيون كوسيلة هو محور لاهتمام كبير، فكما يحب الناس القراءة من أجل الاستمتاع بتجربة المطبوع، فإنهم يحبون التلفزيون بسبب الشاشة التي تعرض الصور والصوت والحركة والألوان.

ويقترح ماكلوهان أن بناء الوسيلة ذاتها مسؤول عن نواحي القصور فيها، ومسؤول عن مقدرتها في توصيل المضمون، فهناك وسيلة أفضل من وسيلة أخرى في إثارة تجربة معينة، فمثلا مشاهدة مباراة في كرة القدم أفضل في التلفزيون منها في الراديو، فيبدو أن لكل وسيلة خصائص خاصة بها تجعلها الأفضل في إثارة موضوعات معينة.

ثالثاً: وسائل الاتصال الساخنة ووسائل الاتصال الباردة:

ابتكر 'ماكلوهان' مصطلحات "ساخن" و"بارد" ليصف بناء وسيلة الاتصال، أو التجربة التي يتم نقلها. ويهتم 'ماكلوهان' بالقدرة على التخيل الذي يعتبر محور فكرته عن الساخن والبارد، فالوسيلة الساخنة هي الوسيلة التي لا تحافظ على استخدام الحواس، أو الوسيلة التي تقدم المعنى "مصطنعاً" وجاهزاً مما يقلل احتياج الفرد للخيال. ويرى "مارشال ماكلوهان" أن الوسائل المطبوعة والراديو ووسائل ساخنة، لأن كل منها يعتمد على استخدام حاسة واحدة فقط ولا تحتاج سوى لقدر بسيط من الخيال، في حين يرى التلفزيون من الوسائل الباردة التي تحتاج إلى ممارسة جهد كبير في التخيل من جانب المشاهدين.

بهذا المعنى فإن الوسيلة الساخنة درجة وضوحها مرتفعة وعلى درجة عالية من الفردية، وتحتوي على قدر كبير من المعلومات المطلوبة. أما الوسيلة الباردة فدرجة وضوحها منخفضة وتنقل معلومات قليلة، وتحتاج إلى جهد من جانب الجمهور لاستكمال التجربة.

الانتقادات الموجهة لهذه النظرية:

أصبحت أفكار مارشال ماكلوهان في السنوات الأخيرة موضع انتقاد أو تعديل أو تشكيك من قبل بعض الباحثين، وفي هذا الصدد يرى (ريتشارد بلاك) أن (القرية العالمية) التي زعم ماكلوهان وجودها، لم يعد لها وجود حقيقي في المجتمع المعاصر.

ويوضح ((أن التطور التقني الذي أستاذ إليه ماكلوهان عند وضعه القرية العالمية استمر في مزيد من التطور، بحيث أدى إلى تحطيم هذه القرية العالمية وتحويلها إلى شظايا فالعلم الآن أقرب ما يكون إلى البناية الضخمة التي تضم عشرات الشقق السكنية التي يقيم بها أناس كثيرون ولكن كل منهم يعيش في عزلة. ولا يدري شيئاً عن جيرانه الذين يقيمون معه في البناية نفسها)).

وهناك أيضا من يرى، أنه بدلا من الحديث عن الحتمية التكنولوجية، قد يكون من الأدق أن نقول أن المتلقي يجب أن يشعر بأنه مخلوق له كيان مستقل، قادر على التغلب على هذه الحتمية التي تنشأ نتيجة لتجاهل الناس لما يحدث حولهم، وأنه لا يجب اعتبار التغير التكنولوجي حتميا ولا مفر منه. ذلك لاننا إذا فهمنا عناصر التغير يمكننا أن نسيطر عليه ونستخدمه في أي وقت نريده بدلا من الوقوف في وجهه أو الاستسلام له.